دراسات في الرحلة الحجية المغربية (4):
نشأة الرحلات الحجية المغربية وتنظيمها

د. عبد الله بوغوتة
أستاذ باحث في التاريخ والتربية والتكوين
أستاذ مكون بالمركز الجهوي لمهن التربية والتكوين بجهة الشرق المغرب
ORCID : 0009-0002-1586-2343

من المعلوم أن المغاربة، عبر تاريخهم الإسلامي، عرفوا بحرصهم الكبير على أداء فريضة الحج، باعتبارها ركنا من أركان الإسلام -لمن استطاع إليه سبيلا- أولا، ثم لما يَتَوافَرُ لهم في هذه المناسبة من فرص اللقاء والتواصل مع إخوانهم المسلمين، من جميع أنحاء المعمور، في إطار الأخوة الإسلامية، وصلة رحم العقيدة. بالإضافة إلى أن رحلة الحج، ذهابا وإيابا، تتخللها لقاءات مع طلبة العلم وشيوخه، فتتحقق الاستفادة والإفادة، ويتحقق التواصل الديني والثقافي والحضاري، بكل مستوياته، عبر عملية الأخذ والعطاء.

أولا: نشأة الرحلة الحجية المغربية

كما هو معلوم، فبالرحلة أتيحت للحاج المغربي فرص أخرى لتأكيد تعلقه وارتباطه بإخوانه المشارقة وغيرهم، والتأكيد على وحدة الدين وأخوة العقيدة، فتنتج عن ذلك مظاهر التكافل والتضامن والتآزر، ولا سيما خلال الحروب والكوارث والنوائب. وكم من الحجاج المغاربة استشهدوا في بلاد الشام وغيرها، دفاعا عن بيضة الإسلام، وحياض الأمة! وأسماء عدد منهم مسجلة بكثير من التنويه لدى مؤرخي الحروب الصليبية، هذا فضلا عن تبادل الرأي والمشورة والنصيحة في إطار الأمة الواحدة.

ولعله من البدهي الإشارة إلى أن الرحلة بين المشرق والمغرب الإسلاميين، لم تنقطع إلا استثناء، لغياب عنصر الأمن في الطريق. وعليه، فإن المغاربة منذ اعتنقوا الدين الحنيف وقلوبهم تهوي باستمرار إلى البيت العتيق، طلبا للحج أساسا، وما يرتبط به من منافع أهمها الاستزادة من العلم والمال.

ولقد استقطبت الرحلة الحجازية أكثر المغاربة واستهوتهم، فقد ذكر ابن خلدون في مقدمته أن «رحلة المغاربة كانت غالبا إلى الحجاز، وهو منتهى سفرهم...»[1]. وأورد المقري في كتابه «نفح الطيب»، ما يزيد عن ثلاثمائة من الرحالة الأندلسيين والمغاربة الذين رحلوا إلى المشرق بغرض الحج أو غيره، ومع ذكر هذا العدد، فقد اعترف بقصوره وعجزه عن استيعاب كل من رحلوا إلى المشرق، وذلك بقوله: «إن حصر أهل الارتحال لا يمكن بوجه ولا بحال، ولا يعلم ذلك على الإحاطة إلا علام الغيوب... ولو أطلقنا عنان الأقلام فيمن عرفناه من هؤلاء الأعلام، لطال الكتاب وكثر الكلام، ولكننا نذكر منهم لمعا على وجه التوسط من غير إطناب داع إلى الإملال، واختصار مؤد للملام»[2].

لا بد من القول بأنه لا يمكننا أن نحدد بالضبط أولى الرحلات الحجية المغربية؛ لأن المغاربة، منذ اعتنقوا الإسلام، كان مطمحهم ومبتغاهم هو حج بيت الله الحرام، وتجديد العهد بتلك البقاع والديار المقدسة كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، لكن يمكننا أن نعتبر أن أول رحلة مكتوبة هي رحلة أبي بكر بن العربي رحمه الله. وبدأ هذا الصنف الأدبي يتطور منذئذ، إلى أن بلغ شأوه في العصر المريني؛ لأسباب عديدة سيأتي ذكرها وتفصيلها لاحقا. وانطلاقا من الدراسات التي أنجزت في هذا الباب، يمكنني أن أؤكد أن المغاربة حازوا قصب السبق في تدوين الرحلات الحجية، والتي تقدم –دون ريب- صورة حية وحقيقية عن مجتمعات زمانها، سواء في بلاد المنطلق أم في البقاع المقدسة، أو في طرق الحج.

ثانيا: ازدهار الرحلة الحجية المغربية وفتورها

كانت الرحلة عموما، والحجازية الحجية على وجه الخصوص، في العصر الوسيط -كغيره من العصور- المعبّر الأمين عن الأوضاع السياسية، والاجتماعية، والثقافية، والتربوية، والدينية. ولقد انتعشت الرحلة في فترات دون غيرها، وكانت من أهم قنوات التواصل بين المغرب والمشرق الإسلاميين.

فإذا كانت الرحلة الحجية كانت منذ البدايات الأولى للإسلام في المغرب، وتدوينها منذ العصر المرابطي، ففي العصر المريني الأول -عصر القوة- ازدهرت الرحلة، وكثر الرحالون، بشكل لم يعرف من قبل ولا من بعد، وإذا كان من أبرز ما أسهم به المغاربة في ميدان الثقافة العامة والتراث

[1]- **مقدمة ابن خلدون**، ص805.

[2]- **نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب**، المقري، 5/2.

الإسلامي هو كتب الرحلات، «فإن ما يعتز ويباهي به المغرب في رحلاته قد وضع في هذا العصر. فلقد امتاز هذا العصر الزاهر بإقبال المغاربة على تدوين أخبار رحلاتهم»[1] أكثر من أي وقت آخر.

يورد الكتاني في تقريظه لصاحب كتاب «دليل الحج والسياحة» قائمة طويلة بمن رحل إلى الحج، مقتصرا على من اشتهرت رحلاتهم بين الناس فعد منها أربعين رحلة حجازية.[2]

وأما الدكتور عبد الهادي التازي في موسوعته القيمة «**مكة في مائة رحلة ورحلة**»، فقد ذكر هذه الرحلات بأسلوب شيق، جمع فيه بين الاختصار والدقة، وإضافة إلى المائة رحلة التي بسط الكلام فيها، فقد ذيّل كتابه هذا بمسرد للرحلات الإضافية ضم عشرين رحّالة مغربياً تحدث عن كل رحالة من هؤلاء بشكل مقتضب جداً، وبهذا يمكننا أن نقول بأن الرحلات الحجية المغربية المدونة قد جاوزت المائة بكثير.

ولقد أسهمت الوضعية العامة في العصر المريني خاصة، في ازدهار الرحلة أو فتورها، ففي العصر الأول أسهم بسط السيادة المرينية على أهم مناطق الغرب الإسلامي، في توفير نوع من الاستقرار، وإشاعة الطمأنينة في النفوس؛ فانصرف المغاربة عموما إلى أعمال علمية واجتماعية ودينية، كان لها الأثر البارز في تنشيط الرحلة وإنعاشها، بعد أن كانت قليلة أو منعدمة؛ حيث لم يكن على الأقل التشجيع على التدوين، أو الاهتمام بما يدون. ومن أهم ما فعله المرينيون في هذا المجال **تأمين طريق الحج**، وذلك بالقضاء على قطاع الطرق والمفسدين الذي كانوا يعترضون سبيل الحجاج؛ فينهبونهم، ويعيثون في الأرض الفساد. فأقبل الناس على الرحلة إلى الشرق؛ لأداء الفريضة، وطلب العلم، والسياحة في الأرض، وزيارة العلماء والصالحين... ولقد أشار ابن خلدون إلى هذا الإقبال على الرحلة، بعد أن زالت الموانع، وأمنت الطرق، وقطع دابر المفسدين بقوله: «لما استولى السلطان[3] على المغرب الأوسط بممالكه وأعماله، وهنأته ملوك الأقطار، وأعراب الضواحي والقفار، وصلحت السابلة، ومشت الرفاق إلى الآفاق، استجد أهل المغرب عزما في قضاء فرضهم، ورغبوا من السلطان إذنه لركب في السفر إلى مكة، فقد كان عهدهم بعد بمثلها لفساد السابلة واستهجان الدول»[4].

---

[1] - **تاريخ شالة الإسلامية**، عثمان عثمان إسماعيل، دار الثقافة، بيروت، ط1، 1975/1395، ص275.

[2] - مجلة المناهل، مقال لمحمد المنوني، العدد10، ص66.

2- السلطان يوسف بن يعقوب المريني (685-706هـ/1286-1306م).

[4] - كتاب العبر، 7/467 – 468.

ومن أجل استتباب الأمن، وإزالة موانع الطريق، أعلن السلطان أبو الحسن المريني الحرب على بني عبد الواد بتلمسان، ورأى ذلك مشروعا لما يحقق من مقاصد مشروعة. ولقد أعرب عن هذا القصد في رسالة وجهها إلى سلطان مصر، عقب انتصاره على بني عبد الواد، وبسط نفوذه على المغرب الأوسط سنة 738هـ/1338م؛ «فتيسر بذلك القصد إلى بيت الله الحرام»، بعد أن «عجز عن الحجاز الشريف قصاده»؛ بسبب فساد بني عبد الواد وقطعهم الطرق»[1]

ولعله القصد نفسه الذي جعل أبا عنان يتوجه بقوته نحو قسنطينة والمغرب الأدنى؛ كما أشار إلى ذلك مرافقه في حركته هذه، ابن الحاج النميري في فيض العباب. بقول: «واعلم أن المراد أن تجتمع كلمة الإسلام، ويلتئم أحزابها أحسن الالتئام، وتتجلى الدواعي لجهاد عبدة الأصنام، ويستطاع السبيل لحج بيت الله الحرام، وزيارة سيدنا ومولانا محمد خير الأنام عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، وينحسم داء الفتنة وينقضي أمد المحنة ويمحو شر الفساد، ويرفع الظلم الذي اعتز به اللئيم فساد»[2].

والأمر نفسه وقع على عهد أبي سالم المريني، عندما أعاد فتح طريق تلمسان، وذلك ما نستشفه من رسالة التهنئة التي بعث بها إليه ابن الخطيب، والتي يقول فيها: «وفتح باب الحج وكان مسدودا، وأقر عيون أولياء الله الذين يذكرون الله قياما وقعودا، وأضرع بسيف الحق جباها أبيه وخدودا»[3].

وهذا الأمر، أي تأمين الطريق، سهل عملية السفر والتنقل والضرب في الأرض، وهي من حقوق الرعية على الراعي، ليطمئنوا على أنفسهم وأموالهم حين حلهم وترحالهم.

وهذا الأمر لا يقل أهمية عن قطع دابر المفسدين من اللصوص وقطاع الطريق، وهو تطبيق عملي للمقصد الشرعي الذي جاء الإسلام ليقره في جميع مناحي الحياة، وهو «درء المفاسد وجلب المصالح». وهكذا، تم إحداث مؤسسات أمنية دائمة في الطرق، ومحطات يستريح فيها الرحالون والمسافرون، ويجدون فيها ما يطمئنهم ويعينهم على سفرهم. ولقد اكتمل تنظيم هذا الأمر في عهد

---

[1] - مقتطف من الرسالة كاملة، في «صبح الأعشى في صناعة الإنشا»، تأليف أحمد بن علي القلقشندي؛ شرحه وعلق عليه محمد حسين شمس الدين. بيروت: دار الفكر، 1987م. 87/8، ومجلة المناهل، ع10، ص 229، بحث لابن تاويت.

[2] - **فيض العباب و إفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب**، ابن الحاج النميري، دراسة وإعداد: الدكتور محمد ابن شقرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1990م، ص70.

[3] - **نفح الطيب**، 37/5 – 40.

أبي الحسن المريني الذي «لما نزل بتلمسان وحاصرها كان أعظم ما نقم على صاحبها تعرضه للمتوجهين من المغرب برسم الحج... ولما فتحت تلمسان صار يعين في كل سنة ركبا متوجها»[1].

وهكذا عمل هذا السلطان على تأمين طريق الحج بتنظيم شبكة أمنية تعنى بهذه المهمة، حيث تم إحداث سلسلة المحارس والمنازل والمخيمات على رأس كل اثني عشر ميلا لحماية الحجاج، وتأمين الطريق لهم، بل وتوفير الراحة لهم وإرشادهم إلى أقرب وأسلم السبل. وفي هذا الصدد يقول ابن مرزوق عن العمل الذي قام به أبو الحسن: «أنشأ هذا المولى –رضي الله عنه– من المحارس والمناظر ما لم يعهد مثله في عصر من الأعصار، وحسبك أن من مدينة أسفي وهو آخر المعمور إلى بلد الجزائر، جزائر بني مزغنان، آخر وسط المغرب، وأول بلاد إفريقية محارس ومناظر، إذا وقعت النيران في أعلاها تتصل في الليلة الواحدة أو في بعض ليلة وذلك في مسافة تسير فيها القوافل نحوا من شهرين وفي كل محرس منها رجال مرتبون نظار وطلاع يكشفون البحر فلا تظهر قطعة تقصد ساحل بلاد المسلمين إلا والتنفير يبدو في المحارس فأمنت السواحل في أيامه السعيدة»[2]. وكذلك كان الأمر بالنسبة للطرق البحرية؛ فانتعشت الرحلة برا وبحرا.

ولولا أمن الطرق ما تحقق حلمهم، فالطريق هي باب الرحلة المعول عليها، تنتعش بضمان الأمن وتوفير المؤونة بها، وتتعطل بانتشار المخاوف وقطاع الطرق سواء في البر أو البحر، وهذا ما جعل بعض فقهاء الأندلس يفتون بتعطيل أداء فريضة الحج في حالة انعدام سلامة الطريق، وهذه الظاهرة استرعت بال المغاربة من شيوخ الزوايا والفقهاء والمؤرخين والرحالين والملوك الذين لهم الفضل في شق الطرق والسهر على تأمينها وبسط سلطتهم عليها.

ومن أجل ضمان الأمن وتوفير المؤونة، يبدو أن السلطان أبا الحسن المريني أول من وضع الرُّتَب على الطريق وهو مبلغ مالي يؤديه المسافر عند المنزلة(النزالة) مقابل المحافظة على سلامته وتوفير التغذية له والعلف لدابته[3]. غير أنه في عهد ابنه السلطان عبد العزيز الأول أصبحت الرُّتَب مجرد ضريبة مفروضة على المسافرين بدون أن يقدم لهم الحراس أي خدمة، فأثارت هذه النازلة قلق الفقيه ابن عباد الرندى الفاسي (733-792هـ/1333-1390)، فكاتب السلطان طالبا منه رفع هذه الإتاوة التي ليس لها سند شرعي ولا وضعي لعدم وفاء المسؤولين بقبضها بالشروط التي قامت عليها، فقال في رسالته : «وقد كنت طلبت منكم في آخر كتاب كتبته لكم أن تزيلوا مظالم

[1] - المسند الصحيح الحسن، ص 256.

[2] - نفسه، ص 266.

[3] - معلمة المغرب الأقصى، رشيد السلامي، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، 1989، 4275/7.

الرتب التي أخذت بطريق المسافرين وأخبرناكم بما شاهدنا فيها من المفاسد المشينة لحسن دولتكم، والمكدرة لصفاء حالكم، فلم تسعفوا طلبنا وشاء الله بقاءها، وأنا الآن أجدد الرغبة إليكم في ذلك والإخبار بحالها»[1].

ثالثا: ركب الحاج المغربي

1- تنظيم ركب الحاج المغربي

يرجع تاريخ نشأة الركب المغربي إلى العهد الموحدي، ويرجع الفضل فيه إلى الإمام الشهير أبي محمد صالح الماجري (550-631هـ/1150-1234م)، كان من أهم أركان طريقته الدعوة لحج بيت الله الحرام، وزيارة قبر النبي عليه الصلاة والسلام. ورغم الصراع الذي نشأ بين الفقهاء والصوفية، حيث إن الفقهاء أفتوا بعدم وجوب الحج على المغاربة لانتفاء شرط الاستطاعة، نظرا للمخاطر التي كان يتعرض لها الحجاج أثناء الطريق، خاصة خطر قطاع الطريق، إلا إن المتصوفة، وخاصة الماجريين، أصروا على تنظيم الركب، وحببوا الناس في الحج، وأقاموا سلسلة من المراكز على طول الطريق الرابطة بين أسفي والإسكندرية، وهذا أمر يؤكد مدى ارتباط هؤلاء وتابعيهم بالمشرق الإسلامي[2].

لقد رفع أبو محمد صالح شعار «الحج إلى بيت الله الحرام»؛ بحيث لم يكن يقبل بأن يرابط معه إلا من حج، ولا يمنح أوراده إلا لمن حج، ولا يعلم أصول طريقته إلا لمن حج؛ وبهذا الشعار تميزت طريقته من باقي طرق الصوفية خلال عصره وغير عصره.

كما أنه لم يكن الحج عنده غاية في ذاته، وإنما لما يترتب عنه من التزام بالشريعة، ظاهرا وباطنا، حقيقة وسلوكا، التزام يقرب من مقام الإحسان، ومقام الإحسان هو: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[3]، فيكون الإحسان هو التحقق بالعبودية، على مشاهدة حضرة

---

[1] - ورقات من الحضارة المغربية في عصر بني مرين، محمد المنوني، ص227.

[2] - أبو محمد صالح، المناقب والتاريخ، أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب، الرباط، 1990، ص51.

[3] - رواه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان باب بيان الإسلام والإيمان والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى، وبيان الدليل على التبري ممن لا يؤمن بالقدر وإغلاظ القول في حقه، 36/1، وأحمد في المسند، 51/1، السنن الصغرى للنسائي، كتاب الإيمان وشرائعه، باب نعت الإسلام، 97/8، وابن ماجة في سننه باب في الإيمان 24/1، وابن خزيمة في صحيحه كتاب المناسك، باب فرض الحج على من استطاع إليه سبيلا، 127/4، والسنن الكبرى للنسائي، كتاب الإيمان وشرائعه باب نعت الإسلام 528/6، والبيهقي في الكبرى، كتاب الحج، باب إثبات فرض الحج على من استطاع إليه سبيلا وكان حرا بالغا عاقلا مسلما324/4، والترمذي في سننه، كتاب الإيمان باب ما جاء في وصف جبريل للنبي الإيمان والإسلام 6/5، ==

ربوبيته بنور البصيرة؛ أي رؤية الحق موصوفا بصفاته بعين صفته، فهو يراه تعينا ولا يراه حقيقة، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: «كأنك تراه»؛ لأنه يراه من وراء حجب صفاته بتعين صفاته، فلا يرى الحقيقة بالحقيقة؛ لأنه تعالى هو الرائي وصفه بوصفه، وهو دون مقام المشاهدة في مقام الروح[1].

وهذا هو الفهم المتعين للحديث الشريف والمقصد الراجح من الإحسان، ولعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه فهم هذا المعنى حين قال: «ما أكثر الركب، وأقل الحجيج»[2].

إن غاية أبي صالح من اشتراط الحج هي تحقيق التوبة؛ فإذا تاب الإنسان، وأتبع توبته بحجة مبرورة، انصرف بعد ذلك بكليته إلى الله، ووجد في سلوك أهل الورع والزهد ما يزيد إيمانه رسوخا، وطاعته إخلاصا، ويقينه صدقا، وقلبه صفاء؛ فلا ينفك عن ملازمتهم حتى يكون له شأن بينهم، وحتى يبلغ مرتبة اليقين والإحسان.

وإن من شأن الحج إلى بيت الله أن يقطع الطريق بين الحاج والمعاصي. فمن حضر تلك المشاهد، ورأى بعين قلبه أنوار الوحي، وهي تنسكب من السماء على «غار حراء» أول مرة، ثم تفيض تلك الأنوار على رياض مكة والمدينة، مجللة البقع المباركة بعلم اليقين، وغاشية كل قلب بعين اليقين، وذلك مكسب لا يفرط فيه من باشر قلبه الإيمان، وتمرغت روحه على عتبات بيت الرسول صلى الله عليه وسلم. إن العادة تميت شوق القلوب، وتقتل طموح النفوس، فتكتفي بالدون، وتقتنع بالركوب.

ولذا كان من شأن أبي صالح أن يعمل على إحياء الموات من القلوب والنفوس حتى تطير شوقا إلى بيت الله، والشوق حين ينشب أظافره في القلوب، والأرواح تكون لنداء الحق مجيبة، ومن

سنن أبو داود كتاب السنة باب في القدر 223/4، صحيح ابن حبان كتاب الإيمان باب فرض الإيمان 389/1، وأخرجه البخاري في صحيحه كتاب الإيمان باب سؤال جبريل النبي عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة وبيان النبي× له 27/1.

[1] - **معجم اصطلاحات الصوفية**، عبد الرزاق الكاشاني، تحقيق عبدالعال شاهين، دار المنار، ط1، 1413ه/1992م، ص 27.

[2] - **هداية السالك** لابن جماعة، 146/1.

حضرة الله قريبة، وحضرته تعالى محل الفاتحة[1]، والمواجهة[2]، والمجالسة[3]، والمحادثة[4]، والمشاهدة[5]، والمطالعة[6]. لأن الحج تربية وعبادة. فإذا ما مارس الحاج العبادة، فينبغي أن يتعهد بالتربية مادام الحج مقصودا لما يترتب عنه من الصفاء والنقاء، ولعله معنى قوله عليه الصلاة والسلام: «مَنْ حَجَّ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ، رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»[7]، وإذا رجع كان هو دليل «الحج المبرور».

وإذا كان الشيخ أبو محمد صالح قد اتخذ من الحج مفتاحا لطريقته، ومبدأ لمريديه، فهو بذلك قد حدد طريقته، وكشف مقاصده وأهدافه، وبين وسائله وآلياته.

وإنه من أجل تفعيل تلك المبادئ، المتحدث عنها سابقا، نظم ركب الحجيج بالمغرب لأول مرة في تاريخه؛ فعمد إلى تكوين أتباع لهذا الغرض، وأنشأ الزوايا والربط في كل اتجاه يؤدي إلى بيت الله، ابتداء من أسفي، وانتهاء بمكة. ومن شأن هذه الزوايا أن يفد إليها من تكون وجهته بيت الله الحرام؛ فيجد من يساعده – حماية وزادا – على الوصول إلى الزاوية، التي تسلمه إلى زاوية أخرى بعد استراحة واستعداد للناس والدواب، وينضاف إلى الركب المنطلق من أسفي ما تجمع من المريدين والحجاج في كل زاوية أو رباط، وتتضاعف الأعداد وتتكاثر، حتى يصل الركب سالما بيت الله الحرام. وكما بدأ الركب يعود من حيث أتى، وهو يتناقص حتى يبقى أهل أسفي وحدهم.

وفي «المنهاج الواضح» أن الزاوية المعدة لهذا الغرض تجاوز عددها ستا وأربعين زاوية، تمتد من المغرب إلى المشرق، مرورا بالمغرب الأوسط ومصر، هذه الزوايا كلها كانت معمورة بمريدين شغلهم الشاغل خدمة الحجيج والمعتمرين، وتسهيل وصولهم إلى ما يبغون، وتأمينهم وحراستهم، من قطع الطريق الموحش بسلام واطمئنان على النفس والمال.

---

[1] - الفاتحة معناها المبادأة؛ مبادأة العبد بما هو فيه على بساط الضراعة والشكوى والمناجاة (من شرح حكم ابن عطاء الله للشيخ زروق، تحقيق عبد الحليم محمود، مطابع دار الشعب بالقاهرة، 1405هـ/1985م، ص 419).

[2] - المواجهة ومعناها: المقابلة، مقابلة القلب بملاحظة الرب دون التفات لغيره، ولا غفلة عن ذكره، (المصدر السابق، ص 420).

[3] - المجالسة معناها الملازمة؛ ملازمة القلب للذكر بلا غفلة، والخضوع بلا وهلة، والأدب بلا مهلة، (المصدر السابق).

[4] - المحادثة ومعناها منازلة الأسرار بذكره وإقباله عليها بما يلقبه وبيديه من سر وغيره فيبسط فيه أنواره، ويلقي إليه أسراره، (المصدر السابق).

[5] - المشاهدة معناها صورة الحقيقة لحد العيان؛ بحيث لا تحتاج لبرهان ولا بيان، (المصدر السابق).

[6] - المطالعة معناها مرافقة التوحيد في كل ورد وصدر، والرجوع إلى الحقيقة المرة بعد المرة. (المصدر السابق).

[7] - رواه البخاري ومسلم في صحيحهما.

ولقد أدهش هذا التنظيم أدهش من أرخ لذلك العصر، الذي كانت فيه المسالك - بقدر ما هي معلومة - مخيفة وموحشة وقاتلة، وكانت زوايا الشيخ مليئة بالزاد والأعوان والأنصار، الذين كانوا يستسهلون كل صعب وشاق في سبيل خدمة الحجيج وعابري السبيل.

وهكذا عمت طريقة أبي صالح المغرب، وأبطلت مقولة إلغاء الحج عن المغاربة[1].

ولعل المقصد نفسه هو الذي كان لدى الشيخ أحمد زروق في نهاية الفترة المرينية، بحيث كان غرض الشيخ من رحلاته المتكررة، حرصه على تكوين جماعة خاصة من تلامذته ومريديه لتكون نواة لفرقة صوفية تجمع بين الحقيقة والشريعة، وتحارب البدع التي تسللت إلى التصوف وتتصدى للدجل الفكري والانحراف العقائدي، وقد كتب لهذه الحركة الانتشار والاستمرار في كل من المغرب الأوسط والأقصى، وهكذا طارت شهرة الشيخ زروق العلمية، وأخذ عنه أساتذة العلم ومشايخ التصوف في شرق البلاد وغربها، فانتسبوا إليه كأتباع ومريدين، وأخذوا عنه.

وإذا كانت المصادر لا تشير إلى وجود زاوية خاصة للمترجم له، فإن القرائن تدل على وجود ذلك بالاستناد إلى ما يلي:

- مقالة السخاوي في «الضوء اللامع»: «ولقيني بمكة سنة أربع وتسعين وصار له أتباع ومحبون» فمن يكون هؤلاء الأتباع والمحبون إذا لم يكونوا جماعته التي تشكل زاوية من نمط خاص.

- تعتبر ضمن مؤلفات زروق الوظيفة الزروقية، وهي تشتمل على آيات قرآنية، وأدعية نبوية... إلخ، ومن المعقول أن الرجل ما كان ليعتني بتحديد الورد لو لم يكن له مريدون يتلونه، ولقد صح عنه أنه قال: «من حفظ وظيفتنا وواظب عليها كان له ما لنا من الحرمة وعليه ما علينا من الرحمة...».

وخلاصة القول إن الشيخ أحمد زروق أحدث مدرسة روحية جريئة معتدلة وثورة فكرية، كتب لها النشاط والاستمرار على يد أتباعه المباشرين الذين حصر على أن يؤلف منهم جماعة على غرار الجماعات الصوفية التي كانت سائدة في المشرق والمغرب، تلك النخبة التي جمعت بين العبادة والمجاورة والاشتغال بالعلم ولم تلبث - على مر السنين - أن أصبحت جزءاً من المجتمع

[1] - كتاب «المنهج الواضح في تحقيق كرامات أبي محمد صالح»، لأحمد بن إبراهيم بن أبي محمد صالح، وكتاب «البدر اللائح في مآثر أبي محمد صالح» للكانوني.

المكي، كما لعبت دوراً كبيراً في حياة مكة الدينية والثقافية والعلمية. وهذا ما يؤكد على دور الرحلة الحجية المغربية في التفاعل الصوفي بين المغرب والمشرق.

2- ركب الحاج المريني

لقد عرف ركب الحج المغربي الرسمي، في العصر المريني، مزيدا من العناية والتنظيم، شأنه في ذلك شأن الرحلات الحجازية عموما. وإن مما ميز الرحلة الحجية المغربية على عهد المرينيين هو دقة التنظيم، والمبالغة في الاحتفاء والتكريم. وقد كان لذلك أثره الكبير في اتساع الركب المغربي؛ حيث نشأت خمسة ركاب لحاج المغرب[1]، بما في ذلك ركب الدولة الذي كان تقريره وتنظيمه رسميا.

ونظرا لتنوع مراكز انطلاق الركبان، عرف تاريخ المغرب أنواعا من الركب أهمها[2]:

• الركب الفاسي، والركب السجلماسي، والركب المراكشي، والركب الشنقيطي، والركب البحري.

نشأ الركب الفاسي في أوائل الدولة المرينية، وأول ركب -كما يشير المرحوم المنوني- هو ذاك الذي هيأه السلطان يوسف بن يعقوب المريني (685-706هـ/1286-1306م) بعدما استتب الأمن، ببلاد المغرب الأوسط خاصة.

وكان لهذا الركب مكانة دينية واجتماعية خاصة عند السلاطين وعموم الناس، يقول المرحوم محمد المنوني: ومما يذكر من اهتمام المغاربة بهذا الركب أنهم كانوا يصلون ركب الحاج ويعينونه بالإعانات المادية الوفيرة[3]، ومن أدلة هذا، أن السلطان أبا الحسن المريني أعطى الركب الذي حج مع الأميرة مريم المرينية، ما يأتي: لقاضي الركب ثلاثمائة وكسوة، ولقائده أربعمائة وكساوي متعددة، وكراكب سنية - بغلات- ولشيخ الركب خمسمائة، ولجماعة الضعفاء من الحاج ستمائة، ولما رافق أبو المجد ابن أبي مدين، كاتب السلطان أبي الحسن وسفيره، ركب عام 745هـ، كان شأنه عجبا في الإنفاق على المستضعفين من الحجاج .

هذا ولقد كان يحتفى ويحتفل بركب الحاج المغربي أيما احتفاء، فتسلم له الهدايا ورسائل الشوق والحنين...إلى غير ذلك من المظاهر الاحتفالية التي كان يحظى بها الركب..

[1] - من حديث الركب المغربي، ص9.
[2] - المرجع نفسه، ص8.
[3] - المرجع نفسه، ص10، 11.

وإن أهم ما يزين ركب الحاج، جماعة من رجالات العلم والفضل برسم مصاحبة المصحف الشريف، ومن هؤلاء العلماء أبو عبدالله القصار كبير علماء المغرب في عصره، علاوة على أبي عبدالله محمد بن إبراهيم البقوري[1] (ت707هـ/1308م) سفير ملك المغرب يوسف بن عبدالحق ثاني ملوك بني مرين إلى الملك الناصر محمد بن المنصور قلاوون الصالحي عام 703هـ/1304م، الذي كان في الآن نفسه المكلف الرئيس بشأن الربعة القرآنية على ما يذكره المقري في نفح الطيب[2]، وعلى ما يؤكده ابن خلدون في العبر: «...فأمر (يعني يوسف) بانتساخ مصحف رائق الصنعة، كتبه ونمقه أحمد بن الحسن المليانى التلمساني الكاتب المحسن، واستوسع في جرمه، وفعل غشاءه من بديع الصنعة، واستكثر فيه من مغالق الذهب المنظم بخزرات الدرر والياقوت، وجعلت فيها حصاة وسط المغلق تفوق الحصيات مقدارا وشكلا وحسنا، واستكثر من الأصونة عليه»[3].

وكانت تتألف هيئة الركب العليا من رئيس يسمى شيخ الركب وأمير الركب يختاره الملك من علية القوم وسراتهم ومن قاض قائد[4]. وتذهب معه حامية بقصد حراسته، كانت في عهد يوسف المريني تناهز خمسمائة فارس من الأبطال[5]، ويذهب في جم غفير من أهل فاس وغيرهم من مختلف جهات المغرب فركب 738هـ في عهد المرينيين توجه معه أمم برسم الحج[6] وركب آخر في ذلك العهد ذهب في آلاف كثيرة تزيد على العشرين ألفا من رجال وخيل[7].

ومن التدابير المتخذة لإنجاح موسم الحج في أول ركب باعتباره أول وفد مغربي رسمي متوجه إلى الحجاز في إطار السياسة الدينية للسلطان المريني، فإنه نظمه تنظيما محكما، استمر نموذجا يحتذي به طيلة العصر المريني[8]:

- تعيين أمير الركب في شخص القاضي محمد بن زغبوش[9].

---

[1] - محدث، زار مصر في طريقه إلى الحج، وتوفي بمراكش. من آثاره: اكمال الاكمال للقاضي عياض على شرح صحيح مسلم، وحاشية على الشهاب القرافي في الأصول. (انظر معجم المؤلفين، عمر كحالة، 216/8.)

[2] - **نفح الطيب**، 53/2.

[3] - **كتاب العبر**، 226/7. دار الفكر، 1421هـ/2001م

[4] - **النفح** 548/2. **الاستقصا** 63/2. و145/4.

[5] - **كتاب العبر**، 226/7، **والاستقصا** 40/2.

[6] - **النفح**، 548/2. **الاستقصا**، 63/2.

[7] - من جواب للفقيه عبد النور بن محمد العمراني. (انظر معيار الونشريسي، 348/1).

[8] - **من حديث الركب المغربي**، ص9-10.

[9] - **العبر**، ابن خلدون، 267/7.

- السهر على سلامة الركب، وذلك بتخصيص حامية عسكرية لموافقته، تتكون من حوالي خمسمائة من الأبطال[1] من خيرة عسكر بني مرين.

- تزويد الركب بأموال طائلة قصد توزيعها على أشراف مكة والمدينة وسكان الحرمين الشريفين[2].

- تعيين بعثة رسمية مكونة من العلماء ورجال الصلاح لحمل المصحف الشريف الذي حبسه السلطان على الحرم المكي، وكان أفراد هذه البعثة هم: محمد بن زغبوش القاضي، وأبو عبد الله القصار كبير علماء المغرب[3]، وأبو عبد الله محمد بن إبراهيم البقوري دفين مراكش[4]، وكان مكلفا بحمل الربعة القرآنية[5]...

ولقد وصل هذا المصحف الكبير والجميل الشكل إلى الحرم المكي، ومما يؤكد ذلك ما ذكره ابن مرزوق الخطيب من أنه رآه بمكة في قبة الأشراف «يقرأ فيه احتسابا»، وأنه قرأ فيه هو نفسه لعدة أعوام[6].

أما الركب السجلماسي فكان «يخرج من سجلماسة ويذهب فيه أهل تافيلالت ومن انضاف لهم وهو ركب قديم. وقد عمر هذا الركب طويلا. وكان يسير تحت إمرة رئيس يختاره أهل الركب من أمثل القوم[7]، أما طريقه فكان غالبا ما يلتقي بالركب الفاسي في تلمسان، ويبقى كل ركب بقيادته وهيئته[8].

---

[1] - **العبر**، ابن خلدون، 268/7.

[2] - **القرطاس**، ابن أبي زرع، ص387.

[3] - **العبر**، ابن خلدون، 268/7.

[4] - **ورقات من الحضارة المرينية**، المنوني، ص131.

[5] - وصف ابن خلدون هذه الربعة القرآنية قائلا: «فأمر (أبو يعقوب يوسف) بانتساخ مصحف رائق الصنعة كتبه ونمقه أحمد بن حسن الكاتب المحسن، واستوسع في جرمه وجعل غشاءه من بديع الصنعة واستكثر فيه من مغالق الذهب المنظم بخرزات الدر والياقوت، وجعلت منها حصاة وسط المغلف تفوق الحصبات مقدارا وشكلا وحسنا» (انظر **العبر** لابن خلدون، 268-267/7).

[6] - **المسند الصحيح الحسن**، ابن مرزوق، ص476.

[7] - **الرحلة الناصرية**، 27/1.

[8] - **من حديث الركب المغربي**، ص29-31 باختصار.

والمعروف من الركب السجلماسي هو الركب الذي قدم معه للمغرب الشريف العلوي الحسن الداخل[1] الجد الأعلى للبيت العلوي الشريف، سلاطين المغرب في الوقت الحالي، وكان وصول الركب السجلماسي إلى المغرب، ومعه الشريف العلوي الحسن الداخل زهاء سنة 644هـ/1266م، في عهد يعقوب بن عبد الحق المريني الذي كان يعظم الشرفاء من آل البيت، واستقر الشريف المذكور بسجلماسة.[2]

وكانت العادة أن يخرج ركب فاس في سابع وعشري جمادى الآخر أو الثامن والعشرين منه بحيث يستهل عليه رجب بتازا أو فوقها، وكان يخرج من باب الفتوح وينزل في المكان المعروف بولجة العسال على الضفة الشرقية لوادي سبو، ويبرز في هيئة بديعة وشارة حسنة من الاحتفال ونصب الأخبية المنوعة من القوراء والمستطيلة والقياطين المثلثة. هذا إلى قرع الطبول وإظهار الزينة[3]، وكان يشيع تشييعا منقطع النظير وقد يحضره حتى السلطان وحاشيته، ويذكر الإسحاقي[4] أن يوم خروج الحاج من فاس يوم موعود ومشهود قل من يبقى بالمدينة إلا خرج ودب ودرج الرجال والولدان والأحرار والعبدان فما ترى أعجب من ذلك اليوم ولا أحسن منه منظرا أو مخبرا يروق البصر ويميل بالفكر عادة جميلة استندوا إليها وطبيعة جبلوا عليها.

وكان الركب المغربي يلاقي في بعض حجاته احتفالات فخمة خلدت صداه في كثير من الجهات. ومن أمثلة هذا أن الركب الذي حجت فيه الأميرة مريم المرينية كان يوم وفادته على مصر مشهودا تحدث الناس به دهرا وخرج للقائهم والسلام عليهم شخصية كبيرة من رجال سلطان مصر وما والاها، الناصر ابن قلاوون وقد بالغ هذا الأخير في الاحتفال بالركب المغربي والاهتمام به من يوم دخل مصر إلى أن قضى مناسكه[5].

ولقد تميز المغاربة بكرم وإحسان فائقين في هذا الباب، ونذكر هنا بعض الأمثلة لذلك وهي الهدايا النقدية التي كان يحملها كثير من ملوك المغرب للركب الفاسي حتى توزع على أهل الحرمين

---

[1] - **القرطاس**، ابن أبي زرع، ص305. ورد ذكر هذا الركب في الأنوار السنية فيمن بسجلماسة من النسبة الحسنية خ. وفي غيرها، ويؤخذ من عدة مصادر أن ورود المولى الحسن القادم على المغرب كان أو ل الدولة المرينية (من حديث الركب المغربي، ص33.)

[2] - **نزهة الحاي**، الإفراني، ص413.

[3] - **الاستقصا**، 145/4.

[4] - **أو ائل رحلة الإسحاقي**.

[5] - **الاستقصا**، 63-62/2 ، **النفح**، 549-548/2.

الشريفين وغيرهما وهذه الهدايا هي التي عنيت بالصرة المغربية وسوف أقتصر على هدايا الملوك التي كانت في بعض الأعوام تصل إلى مبالغ طائلة- لما أنهم عنوان أممهم ولما أن الناس تبع لملوكهم

وأول ما يذكر في هذا الصدد أن السلطان يوسف المريني أرسل مع الركب المغربي أموالا كثيرة بقصد تفريقها على أهل مكة والمدينة[1]. وبعث السلطان أبو الحسن من بني مرين مع ركب الأميرة مريم 3.800 دينار ذهبا برسم العطاء للغرب[2].

وإلى جانب الركاب البرية، كان هناك الركب البحري حيث إن كل الركاب السابقة كانت تسلك طريق البر في ذهابها وإيابها. وفوق ذلك فقد كانت جماعات تؤلف ركابا تسافر في البحر ذهابا وإيابا. ولم يكن هذا وليد تقدم السفر في البحار بظهور السفن، بل كان قبل ذلك بزمن كثير. ومن أمثلة هذا الركب الذي سافر فيه الفقيه الأديب محمد بن علي الرافعي الأندلسي التطواني عام 1096هـ/1685م. فقد أبحر من مرسى تطوان قاصدا الديار المقدسة ثم رجع على هذه الطريق حتى نزل بالمرسى المذكورة[3].

لكن الركب البحري بدأ يزدهر بعد العصر المريني، ومع مرور الوقت نسخ سائر ركاب المغرب الأخرى وحل محلها وصار مع مر الزمن هو ركب المغرب الرسمي[4].

3- أمراء الركب المغربي

تعتبر إمارة ركب الحاج من أهم الخطط، وهذه الخطة كان لها مقام كبير، ولذلك وكان الملوك هم الذين يعينون رئيس هذا الركب، ويختارونه من علية الناس فضلا وأخلاقا وثروة وعراقة بيت. وكانت العادة الغالبة عموما في الركب الفاسي، أن أمير الركب لا يكون إلا من فاس. وكثيرا ما كانت بعض العائلات المغربية تتداول هذه الولاية ومنها عائلة أبي محمد صالح في الدولة المرينية[5]. وهذه زمرة طيبة من أمراء الركب الفاسي:

* الشيخ أبو زيد الغفاري[6] عقد له السلطان يوسف المريني على السير بركب عام 704هـ/1305م.

---

[1] - **الأنيس**، 261.

[2] - **النفح**، 548/2.**الاستقصاء**، 63/2.

[3] - **تاريخ تطوان**، الأستاذ محمد داود، تقديم للأستاذين الحاج محمد بنونة والتهامي الوزاني، المطبعة المهدية، تطوان، 1959.

[4] - **من حديث الركب المغربي**، ص40-41.

[5] - **أسفي وما إليه**، ص 100.

[6] - **كتاب العبر**، 226/7، **الاستقصاء**، 40/2

* الشيخ أبو العباس أحمد بن يوسف[1] حفيد أبي محمد صالح المتوفى أواخر القرن الثامن؛ قاد الركب مرات منها عام 738هـ/1338م.

* الحسن بن عمران ذهب بركب عام 740هـ/ 1340م.

* الشيخ الحاج الراوية المكثر أبو الحجاج يوسف بن الحسن بن أبي بكر التسولي الورتناجي من أشياخ السراج الأكبر ترأس هذا الركب المرة بعد المرة.

* الشيخ عبد الله بن حمد دفين مكناس، والمتوفى بها عام 833هـ/1430م.

4- تنظيم ركب المحمل.

المحمل عبارة عن أعواد من خشب على شكل هودج، شكله مربع ذو سقف يأخذ في الارتفاع من الجوانب إلى الوسط الذي فيه قائم ينتهي بهلال، وكان يسدل على ذلك الهيكل الخشبي كسوة إما من الحرير أو الخز أو غيرهما، وكان يوضع على ظهر جمل عند السفر[2]. وكان أول من استحدث المحامل في طريق مكة الحجاج بن يوسف الثقفي[3].

هذا، وقد ذكر صاحب «الدرر الفرائد» إن: «المحامل التي اعتادت أن ترد من الأقاليم إلى الحجاز أربعة: العراقي، والمصري، والشامي، واليمني. وحج في بعض السنين الحلبيون بمحمل وحج آخرون في سنين مختلفة»[4]. ومن أحفل المحامل أبهة وزينة المحمل العراقي؛ لأن مقر الخلافة العباسية كان في العراق، وكان معول أقاليم الإسلام على ما يصدر منها ويرد إليها، والولايات والأمور الدينية والدنيوية. لذلك فقد اهتم الخلفاء اهتماما بالغا بالمحمل، وكانوا ينفقون عليه بسخاء، خصوصا عندما حجت السيدة زبيدة؛ زوج الخليفة هارون الرشيد، والتي أنفقت المبالغ الطائلة في بناء الصهاريج في درب الحاج لتوفير المياه لهم عبر الصحراء المقفرة[5].

---

[1] - **النفح**، 548/2، **الاستقصاء**، 63/2.

[2] - **مرآة الحرمين أو الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية**، إبراهيم رفعت باشا، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، 304/2.

[3] - **المنتظم**، ابن الجوزي، 273/10.

[4] - **الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة**، عبد القادر بن محمد بن عبد القادر بن محمد الأنصاري الجزيري الحنبلي، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، مكتبة عباس أحمد الباز، مكة المكرمة، ودار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2002م، ص 139.

[5] - **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان**، سبط بن الجوزي، شمس الدين أبو المظفر يوسف، حيدر أباد، الركن، الهند، 1951، 220/17.

ولقد أطنب ابن بطوطة في المديح على ركب الحاج العراقي، في عهد السلطان أبي سعيد، لما انفصل عن مكة في صحبة أمير ركب العراق متجها إلى بغداد. فمن جملة مشاهداته، على سبيل المثال، «النواضح الكثيرة لأبناء السبيل يسقون منها الماء، وجمال لرفع الزاد للصدقة، ورفع الأدوية والأشربة والسكر لمن يصيبه المرض. وإذا نزل الركب طبخ الطعام في قدور نحاس عظيمة تسمى الدسوت، وأطعم منها أبناء السبيل ومن لا زاد معه.

«وفي الركب جملة من الجمال يحمل عليها من لا قدرة له على المشي، كل ذلك من صدقات السلطان أبو سعيد ومكارمه»[1].

من خلال نص ابن بطوطة تبرز أهمية إسهامات السلطان العراقي في توفير الحماية الطبية للقوافل التي يتألف منها الحجاج، بصرف النظر عن انتسابهم لأي جهة، فترى المطايا التي تحمل الزاد والدواء في آن واحد، وذلك على نفقة السلطان أبي سعيد بهادرخان سلطان العراق، الذي كان له الأثر في تفعيل حركة نشاط القوافل التجارية والحجية آنذاك.

ومن جانب آخر، كان المحمل الذي يحمل كسوة الكعبة بيد السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون، بما أضفى على ركب المحمل صفه الرعاية والاهتمام باعتبار أن له الحق السياسي والديني في ترتيب نفقات الحرمين الشريفين. يقول ابن بطوطة: «والملك الناصر هو الذي يتولى كسوة الكعبة الكريمة، ويبعث مرتبات القاضي الخطيب والأئمة والمؤذنين والفراشين وما يحتاج له الحرم الشريف من الشمع والزيت في كل سنة»[2].

كما لم نجد ذكرا ليوم المحمل في مدونات الرحلات المغربية والأندلسية إذا ما استثنينا رحلة ابن بطوطة في القرن الثامن الهجري، ففي ذلك الوقت كانت كسوة الكعبة وما يلزم الحرمين الشريفين، والصدقات التي توزع على فقرائها، في مقدمة المحمل، وكان أميره مقدما في الرتبة والمنزلة. فقد جرت العادة المصرية في يوم المحمل أن يجتمع الحجاج بالقاهرة، وتعد الدولة الكسوة للكعبة حتى إذا كان منتصف شوال جلس السلطان بالميدان، وعرضوا عليه كسوة الكعبة، والرقع، وكسوة مقام إبراهيم، ثم يشقون القاهرة بصحبة المحمل يراه الناس ويتبركون به، ويخرج أمام المحمل الجمال الكبار، وأمامها الطبول والزمور، وقضاة المحمل الأربعة وأمير الحج وأعيان الحجاج[3]. وكان يقام للمحمل بالقاهرة دورتان كل سنة، الدورة الأولى في رجب، وكانت بدايتها في عام

[1] - **رحلة ابن بطوطة**، 1/411. 412.

[2] - المصدر نفسه، ص 410.

[3] - **العلاقات الحجازية المصرية زمن السلاطين المماليك**، علي بن حسين، دار حراء، 1973م، ص 77.

675 هـ/1277م على عهد الظاهر بيبرس. والثانية في نصف شوال، وبدأ ذلك سنة 700 هـ/1301م[1].

يصف لنا ابن بطوطة يوم المحمل بمصر قائلا: «يوم دوران المحمل يوم مشهود... يركب قضاة القضاة الأربعة، ووكيل بيت المال والمحتسب، ويركب معهم أعلام الفقهاء وأمناء الرؤساء وأرباب الدولة، ويقصدون جميعا باب القلعة: دار الملك الناصر؛ فيخرج إليهم المحمل على جمل، وأمامه الأمير المعين للسفر إلى الحجاز في تلك السنة ومعه عسكره، والسقاؤون على جمالهم. ويجتمع لذلك أصناف الناس من رجال ونساء، ثم يطوفون بالمحمل وجميع من ذكرنا معه بمدينتي القاهرة ومصر، والحُداة يحدون أمامهم، ويكون ذلك في رجب. وعند ذلك تبتهج العزمات، وتنبعث الأشواق، وتتحرك البواعث، ويلقي الله تعالى العزيمة على الحج في قلب من يشاء من عباده؛ فيأخذون في التأهب لذلك والاستعداد»[2].

ويلاحظ أن قافلة المحمل أخذت نوعا من التنظيم، قُسِّم بمقتضاه ركب الحاج إلى ركبين أو قافلتين: إحداهما تسمى «الركب الأول»، وتسمى الأخرى «ركب المحمل». والفاصل بينهما في السير، ذهابا وإيابا، يوم وليلة[3].

ولقد شاهد الرحالة البلوي ذلك النوع من التنظيم. فهو يذكر موافقة قدومه إلى مدينة الكرك وصول المحمل الدمشقي والمركب الحلبي، فضلا عن تجهيز الركب الكركي الذي من عادته المبادرة بالتقدم والإسراع، قاصدا السبق في أول وافد على تلك البقاع الشريفة. وبعدها يذكر سيرة مع ذلك المحمل الذي يخرج في الغالب يوم الإثنين من شهر شوال على حد تعبيره، ويبدأ موكبه من عند الثنية العلية. يقول البلوي: «فسرنا في جيش كثيف وعدة ظاهرة، تحت أعلام فخمة وطبول هادرة، وأخذنا السير ليلا ونهارا، وفصل السري إظلاما وأقمارا، وتقطع أرضا صحراء مخوفة القطع، جرداء كالنطع، سوداء مثل القطع، يخطئ الدليل سمتها، ويضل السبيل عوجها وأمتها نخترق فيها كل خرق وتموج فيها عند كل صبح...»[4].

---

[1] - **مرآة الحرمين**، إبراهيم رفعت باشا، مطبعة دار الكتب المصرية، ط1، 1344هـ/1925م، ص 308.

[2] - **رحلة ابن بطوطة**، 221/1.

[3] - **العلاقات الحجازية المصرية**، علي بن حسين، ص 79.

[4] - **تاج المفرق**، البلوي، 277/1.

يبدو أن الركب الذي ضمنه البلوي ركب رسمي منتظم، بيد أنه أسبغ عليه الصبغة السياسية والدينية، فالركب يتكون من جنود وحرس كثيف، وأعلام سلطانية، وآلات موسيقية أعطت للركب صفة الهيبة السلطانية والأبهة الملوكية.

ثم يبين البلوي أن الغرض من هذا التقسيم هو تسهيل المسير، واجتناب مخاطر الطريق والزحام على صهاريج المياه[1]. وسأشير فما يأتي إلى ما يدل على تنظيم هذا الركب/المحمل.

5- إمارة الحج

قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إِذَا خَرَجَ ثَلَاثَةٌ فِي سَفَرٍ فَلْيُؤَمِّرُوا أَحَدَهُمْ»[2]، فأوجب النبي صلى الله عليه وسلم تأمير الواحد في الاجتماع القليل العارض في السفر، منبها بذلك على سائر أنواع الاجتماع؛ فتعين بذلك التأمير على حجاج بيت الله الحرام شرعا.

وبما أن إمارة الحج جماعية، فإنه كان واجبا على ولي الأمر البحث عن المستحقين المؤهلين للولايات التي يجتمع فيه العلماء والفقهاء والأولياء والصلحاء.

فإمرة ركب الحج تعتبر ولاية سياسية، وتدبيرا من أجل المراتب الدينية، وأعظم الوظائف؛ لأنه يقود جموع المسلمين في أداء مناسكهم، وينوب عن ولي الأمر في خدمة الحرمين الشريفين.

5.1- مراسيم تعيين أمير الحاج.

اتسمت مراسيم تعيين أمير الحاج، في عهد الدولة المملوكية، بالعديد من الترتيبات التي طرأت على هذه الوظيفة؛ حيث كان السلطان المملوكي هو الذي يعين أمير الحاج في كل عام، وكان على قافلة الحاج أمير واحد يتولى أمر الركب. وتغير الأمر في أواخر القرن الثامن الهجري، بظهور ما يسمى بـ«أمير الركب الأول» و«أمير المحمل». وكان أمير الركب الأول أقل رتبة من أمير المحمل؛ إذ كان غالبا أمير عشرة[3]، بينما كان أمير الحاج أمير مكة[4].

---

[1] - المصدر نفسه، ص 277.

[2] - أخرجه أبو داود رقم/2608، وأبو عوانة في صحيحه 514/4، والطبراني في الأوسط، رقم8093، والطحاوي في المشكل 38/12، والبيهقي في سننه رقم/10131، والبغوي في «شرح السنة» 11/22-23، وغيرهم من طريق حاتم بن إسماعيل عن ابن عجلان عن نافع عن أبي سلمة عن أبي سعيد.

[3] - صبح الأعشى، القلقشندي، 14/4.

[4] - أمير المائة: كانت هذه المرتبة تمثل أعلى مراتب العسكريين في الدولة الأيوبية، وقد ظل أمير المائة في عصر المماليك يمثل أعلى طبقات الأمراء في الجيش المملوكي. (صبح الأعشى للقلقشندي، 14/4).

وعادة ما كان يتم تعيين أمير الحاج في شهر ربيع الأول فيما يعرف بيوم المولد النبوي، وكان هذا اليوم جديرا بعناية سلاطين مصر؛ إذ كان يتلى فيه القرآن الكريم وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم، وتقام بعض الألعاب الترفيهية. وعندما يتم اختيار أمير الحاج من قبل السلطان يدار مشروب السكر على الحضر؛ فيشرب السلطان، ثم يعطي إشارته لحامليه إلى من اختاره أميرا للحاج في تلك السنة. وعند وصول المشروب يفهم الإشارة، وينهض على قدميه مسرعا لتقبيل يد السلطان، ثم يأتي بعده الأمراء للتهنئة على هذا الاختيار.[1]

5.2- واجبات أمير الحاج[2]:

لم يكن اختيار أمير الحاج عشوائيا، بل كانت تشترط فيه عدة شروط؛ منها: أن يكون مسلما، بالغا سن الرشد، خاليا من العاهات الجسمية والعقلية، وأن يكون مطاعا، ذا رأي وشجاعة وهيبة وهداية[3].

وأضاف الجزيري، إلى ما سبق من شروط، توافر الورع والتقوى، وأن يكون متصفا بالاستقامة والأفعال المرضية، عالما بأحكام الحج[4].

وإضافة إلى الشروط التي ينبغي توافرها في أمير الحاج، فإن عليه واجبات يلزمه القيام بها، منها:

- أن يجمع الناس في حلهم وترحالهم حتى لا يتفرقوا، وأن يحصيهم في كل مراحل الحج.
- أن يسهر على عملية الترتيب في المسير والنزول بتوزيعهم على مجموعة من القواد، وذلك حتى لا يتنازعوا ولا يضلوا.
- أن يرفق في المسير حتى لا يعجز الضعيف ولا يضل عنه المنقطع.

---

[1] - **الدرر الفرائد**، الجزيري، 287/1، **وبدائع الزهور**، 267/1.

[2] - أمير الحاج: اسم وظيفة عرفت منذ عهد النبي ×؛ إذ كان ينيب عنه أحيانا أحد الصحابة في رئاسة المسلمين الذاهبين للحج، وسار الخلفاء والولاة على هذه السنة؛ فكانوا يعينون نوابا عنهم يرأسون الحجيج الخارج من أقطارهم إلى بيت الله الحرام. وهذا المصطلح مؤلف من كلمتين: «أمير» بمعنى رئيس أو قائد أو وال، وحاج وهو قاصد مكة للنسك. وعرف أمير الحاج في عصر المماليك بأمير ركب الحاج الأول» وأمير ركب المحمل»؛ كما هو الشأن على عهد الدولة المرينية بالمغرب، كما يشير إلى ذلك المنوني في كتابه ركب الحاج المغربي. (انظر صبح الأعشى، القلقشندي 7/74-75، والفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، حسن الباشا، 202/1-203، والتعريف بمصطلحات **صبح الأعشى**، أحمد قنديل البقلي، ص48).

[3] - **الأحكام السلطانية**، الماوردي، ص108، والدرر الفرائد، الجزيري 225/1.

[4] - **الدرر الفرائد**، الجزيري، 225/1.

- أن يسلك بهم أسهل الطرق، ويتجنب أوعرها وأضيقها.
- أن يبحث عن الماء إذا فقد، والمراعي إذا قلت.
- أن يحرسهم عند حلهم، ويحوطهم بأتباعه وحرسه إذا ساروا حتى لا يتسلط عليهم عابث أو مفسد.
- أن يمنع عنهم من يصدهم عن المسير، ويدفع عنهم قطاع الطرق واللصوص.
- أن يصلح بين المتشاجرين، ويتوسط بالقسط بين المتنازعين.
- أن يقوم زائغهم، ويؤدب خائنهم، بإقامة الحد عليه، أما إذا دخل الركب بلدا قبل إقامة الحد، فلوالي ذلك البلد إقامته.
- أن يراعي الوقت حتى لا يفوتهم الحج. وإذا وصل إلى الميقات أمهلهم للإحرام، وإقامة السنن، وإن كان في متسع من الوقت سار بهم إلى مكة ليخرجوا مع أهلها إلى المناسك، أما إذا كان الوقت ضيقا سار بهم إلى عرفة حتى يدركوا الحج[1].

على أن مراعاة هذه الواجبات بدقة من ناحية الشكل غير كاف، إذ لم يكن أمير الحاج مطاعا ذا رأي وهيبة. لذا فقد عظم سخط الجزيري على ما انتهى إليه حال إمرة الحاج من هوان، فصار يسعى في هذه الأمور وفي مناصب بابها من ليس بمحبوب ولا مرغوب، وقد تولاها كشاف الجسور من لا خبرة لديه بالأمور، وأسافل الناس ونفر العسكر...[2]

وإذا كان من الواجب ذكر ما آلت إليه حال أمراء الحج في سعيهم في الإصلاح، فواجب أيضا ذكر محاسن ومآثر بعض الأمراء من الذين فهموا مقتضيات حقوق الإمرة، وقاموا بواجباتهم خير قيام. فهذا ابن بطوطة يخبرنا بمحاسن إمرة الحاج العراقي، فقد ذكر أن إمارة الحاج كانت للشيخ شهاب الدين قلندر المنسوب للطريقة القلندرية في التصوف. يقول عن مكة: «خرجت صحبة أمير ركب العراق البهلوان محمد الحويح، وهو من أهل الموصل، وكان يلي إمارة الحاج بعد موت الشيخ شهاب الدين قلندر، وكان شهاب الدين سخيا فاضلا عظيم الحرمة عن سلطانه يحلق لحيته وحاجبيه على طريقة القلندرية»[3].

[1] - **مرآة الحرمين**، إبراهيم رفعت باشا، 298/2. 299.

[2] - **الدرر الفرائد**، الجزيري، ص 88. 89.

[3] - **رحلة ابن بطوطة**، 411/1.

وكانت الإمارة تعود على الأمير بمنافع مادية، لكننا لم نقف على معلومات عنها في مدونات الرحالة، إلا ما يتصل بأواخر العصر المملوكي[1].

5.3- الموظفون الملحقون بقائد المحمل.

إضافة إلى أمير المحمل الذي يعد القائد الأعلى للركب، نجد عددا من الأعوان والأتباع الذين يساعدونه في أداء مهامه في الحل والترحال.

فعادة ما كان يلي الأمراء في المهام الرسمية في المحمل، القاضي والخطيب المقدم من قبل الخليفة العباسي للخطبة والقضاء بمكة في موسم الحج.

كذلك من الوظائف الملحقة بقائد المحمل، وظائف المنشدين والمراقبين الذين يضبطون ركاب القافلة، والمشرفين أيضا على الدواب من خيول وجمال التي تحمل حاجيات الحجاج. ومن الوظائف الملحقة بقائد الحملة مهمة إعلام الناس بالقدوم والرحيل.

ومنها وظيفة مبشر الحاج الذي لا يتوانى في الإخبار، برؤية الهلال متى شهد ذلك ثقات من أهل الزهد والورع وسواهم من الواصلين من المدينة إلى المكرمة، ويتوجه بالبشارة إلى القاضي ليقر بتلك الرؤية، ويسير مسرعا حتى يبلغ الحجاج رؤية الهلال كي يشعروا بالأمن والسلامة.

أيضا العسس الذين يطوفون ليلا على الحجيج يتعرفون الأخبار، ويمنعون ما عساه أن يقع من الشجار. كما كان ملحقا بالمحمل قاض للفصل في المنازعات وفقا للشريعة الإسلامية[2].

أما عن ترتيب ابن بطوطة للموظفين الملحقين بقائد المحمل خلال القرن الثامن الهجري فيورد ما يلي: «وكيفية ترتيبهم فيه أنه يركب قضاة القضاة الأربعة (الحنفي، الشافعي، المالكي، الحنبلي)، ووكيل بيت المال، والمحتسب، ويركب معهم أعلام الفقهاء وأمناء الرؤساء، وأرباب الدولة. ويقصدون جميعا باب القلعة: دار الملك الناصر فيخرج إليهم المحمل على جمل وأمامه الأمير المعين لسفر الحجاز في تلك السنة، معه عسكره والسقاؤون على جمالهم»[3].

وهذا الترتيب المحكم الذي كشفه ابن بطوطة دليل على ما حصل للديوان الإداري المملوكي من حداثة وتطور، وهنا نتساءل لماذا اهتم المماليك بتنظيم المحمل وترتيبه في كل عام؟

---

[1] - **درر الفوائد**، (المخصصات المالية لأمير الحاج)، الجزيري، ص 112.

[2] - **مرآة الحرمين**، إبراهيم رفعت، 302/2.

[3] **رحلة ابن بطوطة**، 221/1.

أولا: لأن المماليك شعروا بعظم المسؤولية التي وقعت على عاتقهم في تحمل التكاليف والسهر على راحة الحجيج، خصوصا بعد انفتاح المماليك بعلاقاتها الخارجية مع بلاد المغرب الإسلامي؛ الأمر الذي نتج عنه تزايد أعداد الحجيج في كل سنة. فالمماليك أكدوا في عدة مناسبات قولا وعملا حمايتهم للمغاربة في الذهاب والإياب، لذا يتم التركيز على حماية الركب وطريق الحجاج، والحفاظ على الأمن.

ثانيا: جرت العادة أن المحمل يخرج من العراق بحلته العظيمة، وذلك لأن بغداد كانت حاضرة الخلافة العباسية؛ فكان لزاما عليها الإشراف على كل مستلزمات ركب المحمل الذي يحمل في جنباته كسوة الكعبة الشريفة. ولما انطفأ بريق العراق بسبب الكوارث والأزمات المتلاحقة، وخصوصا بعد غزو التتر من الشرق، ضعف مركزها السياسي والديني. وبطبيعة الحال تحولت تلك المركزية إلى مصر، حيث حكم المماليك مصر والشام، فالمماليك شعروا بحجم المسؤولية التي على عاتقهم فقاموا بتحمل كافة النفقات الخاصة بالحرمين الشريفين التي منها المحمل المقدس الذي يرسل من قبل السلطان أو من ينوب عنه في كل عام إلى البقاع المقدسة.

ثالثا: كان للركب أثر كبير في ربط المشرق بالمغرب، وتنشيط الرحلة من المغرب وإليه؛ نظرا لما يصحب الركب عادة من علماء وعلية القوم، ممن لهم رغبة في تأدية الفريضة أو لقاء الشيوخ. والمعروف عن الملوك المرينيين تنظيمهم لركب الحاج المغربي، ولا يمكننا أن نلم بجميع أصناف الركاب الحجية المغربية، كالركب الفاسي، والسجلماسي، والمراكشي...[1] وإنما يكفينا عظم مناسبة ذهاب الركب إلى الحجاز عن طريق مصر الذي يتيح أيضا اشتراك المغاربة عمليا في مهرجان المحمل المصري بالقاهرة، وذلك بحمل جانب من كسوة الكعبة الشريفة ومرافقته في الطريق من مصر إلى مكة، وهذا تشريف ما بعده تشريف لمن يظفر به، فالغالب يرافق الركب من أجل نيل هذا الشرف، وظلت هذه الأمنية الغالية حتى في الأعصر التي تلت العصر المريني[2].

5.4- حجات السلاطين وكبار رجال الدولة.

حرص السلاطين الأيوبيون والمماليك على أن يؤدوا فريضة الحج، لكي يخرجوا أمام العالم الإسلامي في صورة الحكام الصلحاء من ناحية، وحماة الدين والعقيدة من ناحية أخرى. فضلا عن أنهم أرادوا تثبيت دعائم سلطانهم في بلاد الحجاز بالتردد عليه والنظر في أحواله، والتقرب إلى أهله

[1] - **ركب الحاج المغربي**، محمد المنوني، ص 9.

[2] - المصدر نفسه، ص 21.

بالصدقات والأموال والاهتمام بهم حتى لا يقدموا عليهم في الدعاء والخطبة الرسمية، لذا كانوا يولون اهتماما كبيرا للتجديد والبناء في الحرمين الشريفين.

يذكر ابن بطوطة أنه في سنة 732 هـ/1332م حج السلطان الناصر محمد بن قلاوون للمرة الثالثة والأخيرة معه جملة من أمرائه، وجماعة من الأعيان وكثير من الجند[1].

كما حج أمير الركب العراقي محمد الحويج البهلوان وبرفقته من أصحاب الجاه والسلطان من العراقيين والخراسانيين، الذين اعتادوا أن يقيموا بمكة بعد سفر الركبين الشامي والمصري بأربعة أيام، لأنهم يكثرون فيها الصدقات على المجاورين وغيرهم، وقد شاهد ابن بطوطة طوافهم حول الحرم ليلا، فمن لقوه في الحرم من المجاورين أو المكيين أعطوه الفضة والثياب، حتى وصل كرمهم وجزالة عطائهم إلى المتأملين والمشاهدين للكعبة المقدسة، وربما وجدوا إنسانا نائما فجعلوا في فيه الذهب والفضة حتى يفيق.

ومن كثرة إحسانهم أمه في سنة 728 هـ/1328م رخص سوق الذهب بمكة، وانتهى صرف المثقال إلى ثمانية عشر درهما نقرة لكثرة ما تصدقوا به من الذهب، وفي تلك السنة المذكورة ذكر اسم السلطان أبي سعيد ملك العراق على المنبر وقبة زمزم[2].

[1] - **العلاقات الحجازية المصرية**، علي بن الحسين، ص 132.

[2] - رحلة ابن بطوطة، 1/410. 411.